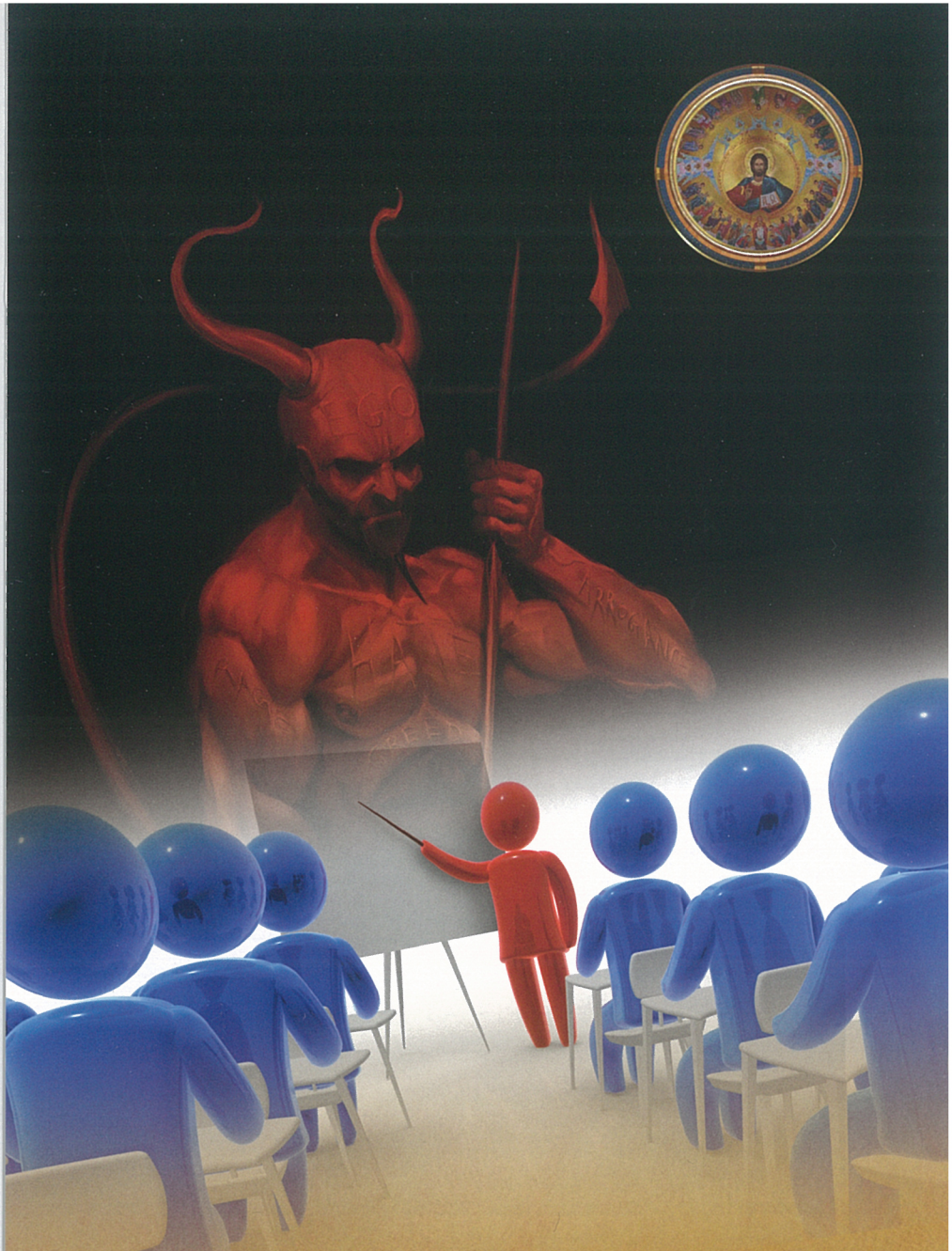

دروس من الشيطان

للقس اغسطينوس حنا

فنّد الرب يسوع المسيح إفتراء الفريسيين وتجديفهم وأدعائهم الباطل أنه شفى المجنون الأعمى الأخرس بتحالفه مع الشيطان وأنه «بعلزبول يُخرج الشياطين» (مت١٢ : ٢٤) بحجة دامغة هى أن كل مملكة تنقسم على ذاتها تخرب وكل بيت ينقسم على ذاته لا يثبت فإن كان الشيطان يُخرج شيطاناً فيكون قد إنقسم على نفسه وما كان يمكن أن تثبت مملكته هذه الألوف من السنين (مت١٢ : ٢٤ ، ٢٥).

ومن وحى ردّ السيد المسيح أستقيت هذا العنوان الغريب (دروس من مملكة الشيطان)، أنه بالرغم من أن الشيطان كائن ساقط شرير خبيث بل مصدر كل الشرور، إلاّ أنه بوصفه كان رئيس ملائكة قبل سقوطه وعنده إمكانيات ضخمة فأننا نحتاج أن نتعلم منه دروساً نافعة لأستخدامها فى الخير لمجد الله ولصالحنا وذلك على ذات القياس الذى أستعمله الرب فى مثل وكيل الظلم حين قال أن «**أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور فى جيلهم**» (لو١٦ : ٨) أو قوله «**كونوا حكماء كالحيات ..**» (مت١٠ : ١٦).

ولعل من أهم هذه الدروس التى نحتاج أن نتعلمها من الشيطان الدروس الأتية:

١- النظام ٢- عدم الإنقسام

٣- الإلتزام ٤- السهر والعمل وعدم اليأس.

أولاً - النظام

أن مملكة الشيطان منظمة جداً ومتعاونة تتبع النظام الرئاسى وقد تحدث الوحى على لسان الرسول بولس عن الرتب الشيطانية بقوله: «**أن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين من ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية فى السمويات**» (أف٦ : ١٢). ومن هذه الآية نستخلص وجود رئاسات وسلاطين وولاة وجنود شريرة تعمل تحت رئاسة إبليس العليا. ومع أن عدد الشياطين غير معروف إلاّ أن بعض علماء الكتاب يقولون أن الملائكة الذين سقطوا ولم يحفظوا رئاستهم وهم من رتبة الكاروبيم أو الشاروبيم يمثلون ثلث عدد الملائكة وأنهم يقدرون بالملايين «ألوف ألوف وربوات ربوات» (والربوة هى عشرة آلاف)، وأن هذا ما يؤيده الواقع من ضخامة حجم الشر والخراب والدمار الذى أحدثته هذه الأرواح الشريرة فى إضلال وتدمير حياة ملايين البشر فى العالم.

والأمر المدهش والمُخجل معاً أن ملايين الشياطين يُنظمون أنفسهم وأهدافهم وأعمالهم بنظام عجيب دقيق فلا يختلفون فيما بينهم ولا يتشاجرون ولا يخاصم أحدهم الآخر ولا يتحدى أحدهم الآخر ولا يعطل أحدهم الآخر أو يعاكسه أو يهينه أو يتعالى عليه أو يُحقر من شأنه، وإنما بالعكس يعملون معاً كشخص واحد بإنسجام عجيب ومن الأمثلة الكتابية لذلك حادثة إخراج السيد المسيح الشياطين من مجنون كورة الجدريين المذكورة فى إنجيل مرقس وجاء بها أن السيد المسيح سأل الروح الشرير ما أسمك فأجاب «لجئون لأننا كثيرون» فلما أمرهم بالخروج من الإنسان المريض أستأذنوا منه أن يدخلوا فى الخنازير فلما أذن لهم دخلوا فيهم فإندفع قطيع الخنازير إلى البحر وكانوا نحو ألفين وغرقوا (مرقس ٥: ٩-١٤).

وكلمة لجئون باليونانية تعنى كتيبة أو فرقة جيش، فإذا أفترضنا أن كل خنزير من الألفين دخله شيطان واحد على الأقل فيكون عدد الشياطين الذين دخلوا فى

ذلك المجنون ٢٠٠٠ ألفين شيطان !! والسؤال الآن هو كيف أن ألفين شيطان نظموا صفوفهم وفكروا وتشاوروا وخططوا وأتفقوا ونفذوا هذه العملية فى ثوان بدقة وإتقان؟!. هذا درس يدعو للعجب والإعجاب ونحتاج أن نتعلمه منهم.

أما نحن فكما يقول قداسة البابا شنوده فى أقواله المأثورة أنه إذا أجتمعت لجنة منا مكونه من ١٢ شخص فأنهم يخرجون بـ ١٣ رأى !! أنهم لا يعرفون كيف يتفاهمون ولا كيف يتفقون ولا كيف يخرجون برأى واحد أو على الأقل برأيين بحيث يسهل التقارب أو الترجيح. ولكن يتشبث كل منهم برأيه وتدخل الذات والأنانية والكبرياء والعند والتحزب والسياسات التى لا توصل إلى نتيجة طيبة ترضى الجميع بل يخلقون مشكلة جديدة أكبر ويبقى الموضوع الأصلى بدون حلّ!

أن الله ألـه نظام وليس ألـه فوضى وتشويش (١كو١٤ : ٣٣ ، ٤٠) وقد ظهر إبداعه فى نظام الكون العجيب وحركة بلايين الكواكب والنجوم والفلك بلا تصادم. وفى مدارات الشمس والقمر والأرض والريح والبحار والهواء. كما يظهر نظامه العجيب فى تكوين جسم الإنسان وإعجازه فى خلق المخ والقلب والعين والعظام والأعصاب وماذا نقول عن نظامه فى عالم الحيوان ومملكة النبات الحشرات .. ألخ. فهلا تعلمنا شيئاً أو تقدمنا خطوة ؟!

إن كنيستنا أيضاً منظمة فى عبادتها وخدمتها وترتيباتها وقراءاتها ومناسباتها وطقوسها. ولكننا مازلنا نشكو من عدم النظام نقص النظافة فى سلوكنا داخل الكنيسة وخارجها.

فلا يزال ينقص روح الخشوع والهدوء والصمت وعدم الكلام فى كنائسنا أثناء الخدمة والأفراح على النحو الذى نجح فيه الأجانب أكثر منا في كنائسهم. ومازلنا لا نحترم مواعيد الكنيسة فنحضر متأخرين فى الوقت الذى نحترم فيه مواعيد العمل لئلا تُفصل ونُطرد ونحترم مواعيد الأمتحانات والمحاضرات وجلسات المحاكم .. ألخ!

والنظافة أيضاً مرتبطة بالنظام فإذا ألقى أحدهم بورقة فى أرض الكنيسة أو علبة مشروبات فى حوش الكنيسة أعتبر ذلك إخلالاً منه بالنظام والنظافة معاً. أننا لا نستطيع أن نعمل ذلك فى شوارع أمريكا أو أوربا ولكننا مازلنا نفعله - أو يفعله أولادنا أمام عيوننا بدون إكتراث فى داخل كنائسنا أو فى فناء الكنيسة أو مطبخها أو دورات المياه بها أو فصول مدارس الأحد. ولذلك أنا أناشد الآباء والأمهات والوعاظ ومدرسى مدارس الأحد أن يزرعوا فى أطفالهم حب النظام والنظافة ويخصصوا لذلك بضعة دقائق كل يوم أو قبل كل درس وإلاّ فلن نتقدم أبداً.

كما أحب أن يرعى الكبار أيضاً شيئاً من النظام فى برنامج حياتكم اليومية فيخصصون بعض الوقت الثابت للصلاة والقراءة فى الكتاب المقدس والشكر قبل الأكل. كما فى ترتيب سرير نومهم بعد الأستيقاظ وغسل صحونهم وأكوابهم بعد الأكل .. ألخ. فإذا لم نتعلم درس النظام من الله أو من الكنيسة أو من المدرسة ولا من البيت فلنتعلمه من الشيطان!

ثانياً - درس عدم الأنقسام

أوضح السيد المسيح بأن مملكة الشيطان لا تنقسم أبداً على نفسها وإلاّ خربت

وإنتهت منذ زمان. وطلب فى صلاته الوداعية الأخيرة لأن يكون جميع المؤمنين له واحداً (يو١٧).

الإنقسامات فى كنيسة المسيح!

بدأت الكنيسة المسيحية عقب حلول الروح القدس عليها واحدة متحدة قوية عملاقة جبارة. وكان من أعظم أسرار عظمتها وقوتها تكرار عبارة "**بنفس واحدة**" "**فكانوا كل يوم يواظبون فى الهيكل بنفس واحدة**" (أع٢ : ٤٦) "**وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة**" (أع٤ : ٣٢).

ولكن من العجب أن يضع الشيطان أنفه وينجح فى كسر وحدة هذه الكنيسة! فقد ظلت الكنيسة فى أروع صورها خلال الأربعة قرون الأولى حتى نُكبت فى القرن الخامس، إبتداء من مجمع خلقدونية بتدخل السياسة والأطماع وحب الرئاسة والأستعانة بالسلطة الزمنية. وبدأ الإنقسام وظهرت الطوائف والمذاهب والحروب والمشاحنات والتحزبات. والآن بعد عشرين قرن صار داخل المذهب الكاثوليكى مثلاً نحو ١٤ أربعة عشر طائفة. وصار داخل المذهب الأرثوذكسى عائلتان من كنائس خلقيدونية، وكنائس غير خلقيدونية.

أما داخل المذهب البروتستانتى فيوجد مئات الطوائف التى يصعب مجرد حصرها أو تسميتها !!!

وإنقسامات داخل الكنيسة الواحدة!

لا يحتمل هذا المقال البسيط مناقشة الأسباب اللاهوتية أو العقائدية أو التاريخية التى أدت إلى هذه الإنقسامات الكبيرة المذكورة. ولكنى أردت أن أنبه إلى خطورة الإنقسام فى ذاته. حتى نجح الشيطان فى أحداث الإنقسام داخل الكنيسة الواحدة ومن الأمثلة المشهورة فى ذلك ما حدث فى عهد الرسل أنفسهم داخل كنيسة كورونثوس عندما إنقسم الشعب بين بولس وأبولس فكتب إليهم الرسول بولس معاتباً وموبخاً «وأنا أيها الأخوة لم أستطيع أن أكلمكم كروحيين بل كجسديين كأطفال فى المسيح. سقيتكم لبناً لا طعاماً .. لأنكم بعد جسديون. فإنه إذ فيكم حسد وخصام وإنشقاق ألستم جسديين وتسلكون بحسب البشر. لأنه متى قال واحد أنا لبولس وآخر أنا لأبلوس أفلستم جسديين ..».

نتائج الإنقسام:

١ - الخراب: فالكل يحفظ ويردد الآية «كل مملكة تنقسم على ذاتها تخرب»، ولكن قلّما يعمل أحد على تفادى هذه الكارثة المُفجعة بأى ثمن مهما كانت التضحيات.

٢ - الضعف والتدهور وعدم الصمود: «وكل بيت منقسم لا يثبت».

٣ - ضياع الهدف والأنصراف عنه إلى الصراعات الجانبية (١كو٣).

٤ - خسارة الأشخاص والمواهب وسط العثرات (مثل زوان الحقل مت١٣ : ٢٤ ، ٣٦).

٥ - تكوين الأحزاب والكتل والشلل المتضاربة وتراشق الأتهامات.

٦ - حصول مضاعافات خطيرة لم يتوقعها أحد فى البداية.

٧ - إختفاء المسيح وإحزان الروح القدس.

٨ - إجهاض الخدمة وجعلها مجهودات ضائعة بلا بركة ولا ثمر.

٩ - دَوسّ المبادئ المسيحية والأخلاقية تحت الأقدام.

علاج الإنقسامات:

١ - «بالمحبة من قلب طاهر وضمير صالح وإيمان بلا رياء» (١تى١ : ٥) والعمل على ما يزيد المحبة. فمحبة الزوجين تجعلهم واحداً (مت١٩ : ٦). ومحبة الجيش لوطنه ولو كان مكوناً من ألف جندى تجعله واحداً. ومحبة الكنيسة للمسيح ولو كانت مكونة من مليون مؤمن تجعلهم واحداً.

٢ - بالثبوت فى جسد المسيح الواحد وفى كلامه (يو١٥). وهذا ما نعنيه بصلاتنا فى القداس «إجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا كلنا أن نتناول من قداستك طهارة لأنفسنا وأرواحنا لكى نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً ...» (الخولاجى المقدس ص ١٠٨).

٣ - يبذل كل إجتهاد لتحقيق صلاة المسيح الوداعية الأخيرة «ليكون الجميع واحداً» (يو١٧ : ٢١).

٤ - بالتضحية وإنكار الذات وإستعمال الحكمة التى من فوق فهى أولاً طاهرة ثم مسالمة مترفقة مذعنة مملوءة رحمة وإثمار صالحة عديمة الريب والرياء. وثمر البر يزرع فى السلام» (يع٣ : ١٧).

٥ - بالصلاة والصوم وطلب إرشاد روح الله وتغليب مجد الله والمصلحة العامة على كل إعتبار آخر وإستحسان شخصى.

٦ - بالديموقراطية المسيحية فإن لم يمكن أن تكون قرارات الكنيسة المسيحية بالإجماع، فعلى الأقل بالأغلبية الكبيرة ووزن الآراء وليس فقط عدّها. على أن يكون الجميع على قدر من الوعى أو التوعية الكافية بدون اللجوء إلى سياسات عالمية تنطوى على لوى الحقائق أو إخفاء بعضها أو ضغوط أو إغراءات أو تعقيد للأمور، أو لمجرد العناد أو الكرامة.

٧ - بإقتناع الجميع بالعمل الموحد البناء والتعاون الكامل بإتضاع Team work وتدريب الجميع على الأشتراك مع الله فى عمله ومع بعضهم البعض.

ثالثاً - درس الألتزام

أن الشيطان ملتزم بأهدافه ومبادئه التخريبية الهدامة الشريرة لا يحيد عنها. أنه يستميت فى العمل على تحقيقها ولا يهدأ ولا ينعس حتى يتممها.

يقول رجال القانون أن الألتزامات على أنواع. فهناك الألتزام بعمل والألتزام بالأمتناع عن عمل. الألتزام بتحقيق غاية والألتزام ببذل عناية. أن ألتزام الطبيب هو من النوع الأخير أى يبذل عناية. فالطبيب يبذل كل جهد وعناية فى علاج المريض ولكنه لا يضمن ولا يتعهد بأن يشفيه وكذلك المحامى يبذل عناية لكسب القضية ولكنه لا يضمن ذلك. وهذا بعكس المهندس الذى يتقاضى أتعاباً لبناء بيت وألتزامه هو بتحقيق غاية فلا يجوز له أن يقول أنه يبذل جهده للبناء ولكنه لا يضمن أن يقيم البناء أو لا يضمن سلامة البناء الذى يسقط عقب إنشائه!

وبالقياس على ذلك نجد أن الشيطان ملتزم بعمل وبتحقيق غاية هى إضلال الناس

وفصلهم عن الله وإبعادهم عن الكتاب المقدس والكنيسة وعرقلة الحياة الروحية والتوبة وكسب الوقت حتى تنتهى حياة الإنسان بدون خلاص فيجد نفسه فى جهنم فجأة! والشيطان مُخلص لأهدافه وألتزامه جداً! فهل نتعلم منه حياة الإلتزام؟ فنلتزم بحياة الإيمان والثبوت فى المسيح. هل نلتزم بدراسة كلمة الله وبالمواظبة على حضور الكنيسة فى مواعيدها؟ هل نحن ملتزمون بالصلاة والخدمة وعمل الخير؟ ألا تستحق مبادئنا المسيحة الجميلة كل التزام فتكون مقدسة فى حياتنا نحبها ونعيشها وننشرها ولا نحيد عنها. هل نحن ملتزمون بتحقيق غاية هى وصولنا إلى السماء والتمتع بالحياة الأبدية مع الله وبأن نُخلّص على كل حال قوماً .. ألم يكن الرسول بولس ملتزماً حين قال «إذ الضرورة موضوعه علىّ فويل لى أن كنت لا أبشر» (١كو٩ : ١٦).

رابعاً - درس السهر والعمل وعدم اليأس

من القصص المشهورة فى حياة القديس مقاريوس الكبير أن الشيطان ظهر له يوماً وقال له : «أنت صائم وأنا لا آكل. أنت ساهر وأنا لا أنام أبداً. ولكنك تغلبنى بأتضاعك». أن الشيطان يعمل بكل قوته وبكل جدية وهو يقظ دائم السهر لا ينام. كما أنه يغتنم كل الفرص للأنقضاض على فريسته ولا يعرف الكلل ولا الملل ولا الخجل ولا الفشل. أنه لا ييأس أبداً.

ولقد حذرنا مخلّصنا من شره وخداعه وكذبه وخبثه وإحتياله ووصفه بالحيّة والذئب واللص والقاتل وأعطانا السلطان أن ندوسه ونقاومه ونطرده بإعتباره عدو مهزوم قد سحق رأسه بالصليب.

كما علمنا الرب فى مثل العذارى السهر وملئ مصابيحنا بزيت الروح القدس والأستعداد لمجيئه. وفى مثل الوزنات بالعمل وإستثمار مواهبنا لمجده وبنيان ملكوته ورصيدنا الأبدى (مت٢٥) ويقول «مكثرين فى عمل الرب كل حين عالمين أن تعبكم ليس باطلاً فى الرب» (١كو١٥ : ٥٨).

بل إن الحياة العملية فى العالم تُعلّمنا العمل الجاد بلا تكاسل ولا تواكل. إذا كانت وصية الرب بأن نطلب ملكوت الله وبره أولاً. فعلى الأقل نعطى لهذا الملكوت نفس الأهتمام والجدية مثل أشغالنا العالمية. والرسول بولس يقول أننا كمؤمنين **«لم نُعط روح الفشل بل روح القوة والمحبة والنصح»** (٢تى١ : ٧) «ولا نفشل فى عمل الخير لأننا سنحصد فى وقته إن كنا لا نكِلّ» (غل٦ : ٨). إن حشرة العنكبوت تعلمنا عدم الفشل فإذا هدمت سيدة البيت عشّه ونسيجه عشرات المرات أعاد بناءه عشرات المرات أيضاً (أم٣٠ : ٢٤).

فإذا ضعُف جهادنا وأهملنا عمل الله وقلّ سهرنا ودب اليأس فينا. فلنتذكر أن الشيطان يعمل ويسهر ولا ييأس ولا ينام وعلينا أن نتعلم منه هذه الدروس.